المناهل

3

قصة:

كاتبٌ وحقّ السّماء ... !!

عبدالكريم غلاب

لم يكن يدرى كم انصرم من الليل ، ولكن الذى شعر به وهو يرفع عينين ارهقهما التحديق والتقاط الكلمات ، فى غرفة ضيقة اطبقت عليها سحب من دخان ثقيل ، انه اشرف على النهاية .

قليلة هى الكتب التى التهمها فى ليلة واحدة . فقد كانت الغرفة الباردة تطبق عليه بسقفها وكأنه يناجى ارضيتها بكلمات ود تكاد تجمع بينهما . كانت الليالى الباردة طويلة مملة فى غرفته الضيقة بسراجها الكابى وانفاسها اللاهثة ، تبدو لعينيه كعجوز تتنفس برئة واحدة .

دخينة ثم اخرى ، بعد ان يرمى بآخر كراسة صححها — وكأنه يرمى بآخر اتعاب النهار — ثم يأخذ النوم بأجفانه فى عناقه الودى .

مع « لوليتا » احس لاول مرة بهدوء يغلف الكون : الجدران الاربعة والسقف المنحدر ، والسرير الذى كتم انفاسه — ولم يكن يتحرك منه الا عيناه فى مسيرتهما التلقائية — الدخان اطبق على الغرفة فلم يعد سراجها الخابى يخترق كونه ذاك الا فى سحبه المكثفة . انفاسه تتردد فى انفعال هى وحدها كانت تؤنس غربة الغرفة التى لا تتردد فيها انفاس الا فى الليل الطويل البارد . لحافه ، يداه تداعبانه ، ترفعانه فوق الراس ، تحتضنانه فى ود ، ظهره يحتك به ، قدماه تتحسسانه وهما تنقبضان كانهما فى شوق طويل الى عناق .

مع « لوليتا » لم يكن يدرى اكان يحتضنه فراش ولحاف . . . عاش معه ومعها الساعات الحرجة ، ترددت انفاسه او تصاعدت ، عيناه لم تكتحلا بنوم لم تضيقا بدخينات كان يشد انفاسه فى . . . لم يكن يدرى اكاد يشدها فى عنف ، لم تداعبها شفتاه فى رفق كما كان يفعل احيانا وهو يصحح كراسات **التلاميذ . ممتعة كانت ليلته . . .** لم يكن يدرى لم لم يعرفها من قبل « لـوليتـا » . . . ؟

كلها كانت تطيل نهاره المتعب ، يرمى بها ، كمـا يرمى بكراسات التلاميذ المتعبة ، بعد الدخينة الاولى والثانية .

« لوليتا » وحدها كانت قادرة على ان تطير من عينيه النوم ، ان يعيش معها فى آفاقها المتمردة على الحيـاة الهادئـة الطبيـعية . . . الطبيعية ؟ حياتها تلك هى الطبيعة . . . احساساتها الثائرة اعادت الحياة الى غرفة كان الموت يدب فى اوصالها .

كل هذا الركام ، هؤلاء الذين زاروها ، ثم عادوا من حيث اتوا . كانت الساعات ، الدقائق معهم مملـة ، الحياة مغلفـة عندهم بنفـاق . احاسيس باردة . كلمات لا تنبض . صناعة ، هؤلاء القصاصون والمؤلفون احترفوها ، وزعوا الادوار فيها بين العقل والمنطـق والتاريـخ والحاضـر والعاطفة . . . خرج الممثلون جميعهـم من ادوارهم فاشلين . الحيـاة تساقطت اوراقها بين ايديهم ، **كشفت** عن عريهم . كم مـن الوقت اضـاع

ـ منذ بدا يقرا ـ مع هؤلاء العراة . . . دخلوا الغرفة وخرجوا منها . اوهم استقروا فى ركنها المنعزل الضيق ذاك على رف يكـاد يهوى ، بئن من « ثقلهم » . لن يؤويهم بعد هذا الرف . « اشان شيفـون . . . » ؟ « الجوطية . . . » لا ، النار مثواهم خالدين فيها .

« لوليتا » . هذه الجنية التى الهبت الكاتب هى وحدها التى ستتربع على هذا الرف . . . ستعيش معى ، تحيل هذا الكوخ البارد الى غرفة دافئة ناعمة موحية يقظة شابة .

« لوليتا » . . . كم انت حية يا « لوليتا » . . !

وضع الكتاب برفق بجانب وسادته .

عاد يتعثر فى الظلام بعد ان اطفأ نور مصباحه . تلمس الطريق الى فراشه ، الى لحافه ، الى وسادته . واحتضنت يـداه « لوليتـا » . اغمض عينيه ، بدا يحلم . . .

سلم ضخم انتصب امامه ، فى الهواء رفع قدميه ، يصعد ثم يصعد . لا درج تعتمد عليها قدماه . لا عوارض تستند اليها يداه ، لا يستبد به خوف من سقوط . عيناه الى سماء لا تنزلان الى ارض . فى دنيا الواقع كان يخشى ان يتأرجح جسمه بين الارض والسقف فيتهاوى ، وكان يخـاف صعود السلالم الخشبية . نظر مرة الى تحت فهاله البعـد . تراقصـت الارض تحت قدميه . اظلت عيناه . دافع عن نفسه ويداه تتشبثان بالعارضيـن . اهتدى . رفع راسه الى اعلى ، خطا وهو يتحسس بقدميه درج السـلم كما يتحسس اعمى . وصعد . فى الحلم اهتدى بالتجربة . لم ينظـر الى تحت ، رفع عينيه الى اعلى . وصعد . . .

افاق من نومه على اطلالة شمس كانت تـتلصـص بين الجـدران السامقة تسترق من النافذة الضيقة نظرة على الغرفة الغارقة فى الرطوبة والبرودة ، وكأنها تقول : ها انا ذى . . . ! من الاطلالة المبتسـرة كان

يدرك ان الوقت ضحى . كانت عيناه تنتظران هذه الاطلالة ضحى يوم الاحد ، وفى الاصباح التى لا يخطف فيها الى المدرسة . يحس بالغربة فى الغرفة الضيقة ، لا تتجاوب معه حتى جدرانها ، ويشعر بالانس فى هذا الغزل البرئى الذى تشرق معه الغرفة اشراقة بريئة كأنها ابتسامة سيدة حزينة لا تلبث ان تنطفىء .

مع الابتسامة المشرقة رفع راسه عن وسادته وما تزال ذراعاه تحتضنان « لوليتا » فرك عينيه ، ما تزال بهما بقية من حلم . خيل اليه انه قضى ليله الطويل يحلم . رمى بذراعيه فى الفضاء وكأنه يستزيد : اصعد . . . اصعد . .

اعاده الواقع الى فراشه الصلب ، جاثما على ارض صلبة تشده اليها فى قسوة . التى نظرة حواليه : الفراغ — لولا الابتسامة التى اطالت اطلالتها — غراف الماء . الكرسى الاعرج والمكتب القديم . دفاتر التلاميذ مزروعة عليه فى غير نظام : لا بد انه كان يلقى بها فى سخط مثير . كل منها يجسد عقلا بليدا لا يكاد يقيم اود جملة .

— هكذا كنت وانت فى سنهم . . .

وابتسم وهو يذكر للمرة الالف الاستاذ الذى كان يثور فى وجهه كلما اخطأ . يهم ان يرميه بحذائه ، بعد ان تتخلص اذناه من قبضته ، لولا ان مدير المدرسة كان يشدد فى منع العقوبة البدنية . . .

بجانب مكتب مايزال وفيا منذ اشتراه اخوه من « الجوطية » يثوى رف ركام الكتب الفارغة . بدت له الغرفة واسعة فى فراغها . ضاقت فجاة والابتسامة تغور . وقف يتحرك فى الغرفة الباردة الوخيمة . امام المرآة اكتشف وجهه لاول مرة . واقفا مفتح العينين كان يحلم :

وجه اديب . لم لا . . . ؟ عينان تقفز منهما الحدة . ذكاء ؟

جحظت عيناه فى وجه المرآة كأنه يريد ان يكتشف ، كأنه فوجىء

بجديد على صفحتها الغائمة . ارتفعت انامله الى ذقنه تتلمس منابت لحيته . نظر شزرا الى آلة الحلاقة . وداعا الى غير لقاء . . . مشط كان يثوى بجانب المرآة . انت الاخر : وداعا الى غير لقاء . . . همت يداه ان تكسره . لا ، اتركه حطاما للماضى يملأ فراغ الغرفة . كم من اشياء فارغة تملأ الفراغ . . . مكتب ، دفاتر ، غراف ولا ماء ، مشط . وارتفعت انامله فى تلقائية تمسد شعره الى وراء . ارتجفت بندم . تحركت الى امام ، يمين ، شمال . بدا شعره منفوشا عاد الى المرآة يستشيرها :

وجه اديب ؟

مايزال فى حاجة الى مزيد : الراس حديثة عهد بالمعلم الحلاق . الذقن فى حاجة الى اسابيع . . .

اختفت الصورة وعيناه تجحظان فى الوجه الزجاجى الغائم . بدت الصورة الجديدة ، عينان حمراوان زائغتان ، الراس الغارقة فى الشعر المنفوش كما لو كان خارجا من معركة ، وجه طفح بلحية ثائرة ، اختفت الفتوة ، النضارة . صفرة تجلل الساحل الذى لم تدهمه ثورة الموج . حدقتان يغلفهما سواد .

افتر ثغره عن ابتسامة ، استطالت اسنانه خربت جدورها ، شيء ما اقتحم صفاءها ، صحتها ، احالها الى اطلال خربة ، اتسعت الابتسامة :

اديب وحق السماء . . . !

كادت عيناه ترتفعان وهو يذكر السماء ، ارتدتا ، كان هناك سقف يطبق . . .

السماء . . ؟ اية سماء . . ؟

قهقه الوجه الغارق فى الشعر المنفوش ، بدا كما لـو كـان يجـادل وجه المرآة :

اديـب وحق نفسـى . . .

عادت ابتسامة الرضى تجلل الوجه الغارق فى الظلام ، انامله تمتد الى دخينة ، حلقه هو الآخر احس بحشرجة تدغدغ اوتاره ، اوقد الدخينة فى عصبية ، كانت الشعلة تهتز بين انامله ، الدخينة ترتعش بين شفتيه ، تقترب احداهما من الاخرى وهى تبـتعد ، التحمـت النـار بالعشب فى لقائهمـا الابـدى . . .

عاد الى الوجه الزجاجى الغائم ، اختفت الصورة ، بدت الصورة الحقيقية وهو يعود من حلمه ، مانزال اصابعه تداعب خديه فى رفق : سأريحكما من هذه الموسى اللعينة ، انتما منذ اليوم حـران ، تمتـعـا بالدفء ، بالطبيعة ، برفقة الخصب والنماء . . . عادت انامله تنفش شعر راسه ، ابتسم ، مانزال اسنانه فى بياضها وجمالها وصحتها .

سأكون اديبا . . عظيما . . !

ابتسامة الرضى تجلل وجهه الصبوح مرة اخرى ، تسمعت المرآة كما لو كان شبابها قد عاد اليها ، تهقه ، صوت مانزال به نعومة .

« لوليـتا » . . اين انت يا « لوليتا » . . ؟

ارتسمت على وجهه علامة حسرة وهو يفكر فى البعيدة . . .

البعيدة . . . شفتاه ترتعشان : « لوليتـا » .

حانت منه التفاتة الى السرير . « لوليتا » كانت هناك . . .

* * *

خرج محمود من غرفته ، شمس مشرقة دافئة ، اختفت ظلال السحب من السماء فبدت زرقاء ، كما تبدو سماء يوم ربيعي ، كان شتاء ، دون امطار ولا برد ولا هواء . شتاء يفر اليه الشماليون لينعموا بالمعجزة ، ينظرون الى الشمس ، حتى تعشى عيونهم ، وكأنها تختزن اشعة كل شموس الدنيا ، وكأن اجسامهم تختزن دفئا الى سنوات . بدت له المدينة ، وكأنها هي الاخرى تحتفل بيوم عطلتها : كسولة ، هادئة ، تتمطى في وداعة فتاة مدللة تود — في الظهيرة — ان تعود الى اغفاءتها . راقه ان ينعم بالدفء ، ان يغازل الفتاة المدللة ، ان يسير بخطوات متهالكة ، كما لو كان يود ان ينام في احضانها . احس بسعادة متناهية ، كان يعبر شوارع المدينة في سباق مع الزمن ورنين الجرس يطن في اذنيه مؤذنا ببداية الدرس الاول . اختفى رنين الجرس : السوط الذي كان يلهب ظهره كجواد عربة . لا درس ، لا رنين . الدنيا متفتحة في يوم عيدها . .

قدماه تنطلقان لا يدري الى اين . بدا كسائح يكتشف المدينة لاول مرة . في اتجاه الآثار واطلال الماضي انسابت قدماه دون وعي . لا يعرف عنها الا القليل . منذ عين مدرسا في المدينة الحافلة بالشمس والضوء وهو يود ان يكون يوما ما سائحا .

تسمرت قدماه لا تتحركان . هتف :

— هي . « لوليتا » .

في باقة من الفتيان والفتيات كانت كوردة ناهد . عينان اشربتا زرقة مذهبة . الشمس الدافئة اشعت في خديها اللاهبين ، قامة مديدة في غير اسراف . شعرها الذهبي السبط كان يتموج في حرية مطلقة تتحرك في يقظة : تداعب ، تبتسم ، تنكت والرفيقات والرفاق يضحكون . لا يدري . هي تتحدث لغة لم يسمعها قط . سويدية ، دانمركية ، نرويجية ، ايطالية . قد تكون كل ذلك . هي بنت الشمال . قد تكون بنت الجنوب . معها قضى ليلته : « لوليتا » .

اخذ يطوف بالرفقة السائحة وكأنه يحاول ان يستقبل الشمس في كل اتجاه . اقترب ، ابتعد ، حدق بناظريه ، ارهف باذنيه ، فغر فاه .

ود لو فهم ، لتقدمت يده بالتحية . بـــدا كأطفال السابلة حينما يتجمعون حول قوافل السائحين .

« لوليـــتا » . . .

هكذا كانت تهتف اعماقه . تتحرك الكلمات فى احاسيسه ، يسمعها باذنيه المرهفتين ، تطفو رويدا رويدا — عيناه محدقتان — الى شفتيـــه المرتعشتين : « لوليتا » . . . كانتا تتحركان فى صمت . اصـــداء الصمت كانت تتردد فى دناياه صاخبة عنيفة قوية . لم تكن تسمع الصوت الصاخب، لم تكن تلتفت اليه . عيناها تتحركان فى ملتقى نظراته .

من اثر لاثر ، من متحف لمتحف ، محمود يتابـــع القافلة ، امامها ، خلفها ، بجانبها . يسترق الكلمة ، النظرة . يكاد يشعر انها تتحدث اليه . يحس بالسعادة . عند بوابة الفندق الضخم توقـــف . الرفقـــة تقتحـــم البوابة فى مقدمتها لوليتا . وبقى حيث هو ...

عاد محمود ادراجه يقتحم الفراغ الهائل الموحش . المدينة الضاحكة الوديعة الغافية اصبحت شامتة هازئة من وحدته ، وهو يحـــث الخطى الى غرفتـــــه .

هناك على الفراش البارد القاحل كانت لوليتا . صورتها الملونة على الغلاف تستدعيه ، تودعه . نظراتها ساخرة هازئة ، فيها رجاء ، فيهـــا احتقار . شفتاها الشهيتان تفتران عن كلمة ، لا تنطقها . جيدها ، صدرها العارى يقتحم حياءه . هم ان يتحدث اليها . زاغت عيناه ، فكره سبـــح هناك فى مسبح الفندق الفاخر حيث كان جسم لوليتا يتأرجح فى الماء الدافىء كسمكة صغيرة يحتويها المسبح الضخم . شلال شعرها الراعش سحابة كثيفة تطفو على الماء لتظلل ظهرها الناعم . عيناها الضاحكتـــان تنعمـــان بالدفء فتشيع فيهما البسمة ، هى نفسها الابتسامة التى اغرته بلوليتا . ذراعاها السابحتان تحتضنان دفقات الماء فى رفق ، تنسحب من احضانها وتعود لتلامس صدرها الناهد وكأنها دفقات لذة كاسحة ...

عاد الى واقعه وبقيت هناك .

عاش محمود عاشقا ولهانا . عاشت معه لوليتا فى احلامه ويقظته تطفو عيناها المشرقتان على واقعه المر وهو يعانق دفاتر التلاميذ ، تمتزضه قامتها المديدة وهو يسير حثيثا الى المدرسة ، ترن ضحكتها الصافية فى اذنيه فتعلو على ضجيج تلاميذه .

« لوليتا » ، هذه الساحرة التى الهمت محمودا ان يكون اديبا ، فكان .

على دفتر من هذه الدفاتر التى لا تكاد تريم عن مكتبه القديم بدا قلمه يخط الكلمات . استعصت ، تأبت . فكانت الدخينة مفتاحه الى المنغلق . وكان كأس الشاى ، كأس القهوة . . ومانزال عصية متأبية . صاحب « لوليتا » كان يقتحم عالمها بغير الدخينة ولا بالشاى والقهوة . وكانت الكأس التى لا يحب ان يراها فارغة ولا مليئة ...

نظر فى المرآة : راس جديرة بكاتب اديب . . . مشط ؟ : صناعة البورجوازيين ، الماء ؟ الماء والمشط والكحل واحمر الشفاه هى لك جميعا يا « لوليتا » .... الذقن التى استراحت من الموسى نبتت اعشابها هنا وهناك ثائرة متمردة تنبىء بعصر الثورات . . والتمردات . . عينان ، موجة من السحب الحمراء زحفت على صفائهما ، يفتحهما فى ثقل على غير بعد ، كما لو كانتا لا تحتملان انوار السماء . ربطة عنق ؟ هذا القيد البورجوازى الذى يطوق عنقه فى غير رحمة رمى به فى ركن المهملات . مانزال به بقايا من عالم غير الموهوبين . قميص نظيفة ؟ ستتأخذ الوان الطبيعة . . . سراويل ؟ ستضيق وتتمزق ويستحيل لونها الى امنا الغبراء . . .

وبدا الاديب الكاتب يحل فى محمود .

مع الليل والهدوء والنور الخابى وفراغ الغرفة والدخينة تغلف الفضاء بلون الرماد يسهر حتى يسمع صياح الديك . دفاتر التلاميذ تظل فى محفظاتهم . شبوا عن الطوق . اصبحوا فى غير حاجة الى تصحيح .

ـ سيخرجون من المدرسة وهم يتعثرون فى الكلمات . . . !

صاح محمود وكأنه يجادل خصما قويا :

ـ ليركبهم الشيطان او ليفعل بهم ما يشاء . انا ايضا خرجت من المدرسة وانا اتعثر فى الكلمات . . .

مع دفتر من دفاتر المدرسة ، كتلميذ مجتهد ، كان يسهر الليل ويكتب القصة . « لوليتا » لا تبرح وسادته . . . كتاب « كيف تكتب قصة ناجحة» صديقه الودود فى الشارع والمقهى والحديقة العامة .
الشكل . المضمون .

استعصت الكلمات ، نضب الوحى . الدخينة ، الكأس ، لم تعد اى منهما تثير انفعاله . لا وحى منهما عليهما اللعنة . . .

تاهت قدماه فى الشوارع ، فى الحارات الضيقة . هناك فى كوة تشبه الدكان تخيم فى جوانبها العنكبوت ، البرودة والوخم والفراغ والمعلم « صابر » ومخرطته وادواته الدقيقة ، وعصاه السحرية تدير دولاب المخرطة . بين اصابع قدمه ويده تخرج المعجزة الفنية من قطعة خشب تافهة . توقف امام الفنان صابر كسائح قدم من شمال اروبا ـ كما لو توقفت « لوليتا » ـ بهره الفن والصناعة والقطع المخروطة الدقيقة . الكلمات الفنية التى تصنع سر القصة .

ـ المعلم صابر فنان يكتب قصة رائعة بقطعه الصغيرة ، تخرج من بين اصابع يده وقدمه ، من تلافيف عقله الذى يكمن هنا . . .

ودقت سبابته على جبهته كأنما تشير الى مكمن حقيقة الفن .

توقفت اليد السحرية تدير المخرطة فى سرعة ودقة . رفع المعلم صابر راسه من بين قدميه تجلله عمامة ضخمة . نظارة متهالكة تثوى بين عينه . رفع النظارة التى ضببها العرق ينساب من جبهته وعينيه وخديه

جميعا . عرق الشتاء البارد نـد عن اجهاد . مر بكمة الممزقة على جبهته وذقنه المبعثرة هنا وهناك . اخذ نفسا عميقا . امتدت يـداه الى غليونه الصغير بتصبته الدقيقة . نفث فيه نفخة قوية . احتضن ابهامه ووسطاه « شقفته » ، سبابته تحشوها فى رفق . توقفت عينـاه عنـد الشقفـة المليئة . عينا محمود تتبعان بدقـة العمليـة الفنـية . كـم هى هزيلـة تافهة ان تحمل دخينة جاهزة بين اصبعيك ثم توقد فيها النار . . . المعلم صابر فنان يكتب قصة ناجحة بكلمات فنية رائعـة تصدر عن مخرطته . اصابعه جميعا تحتضن الشقفة الحبيبة . ود لو امتدت يداه بعود وقيد . تحسست يسراه علبة الوقيد فى جيبه . كان المعلم صابـر اسـرع من امنيته . انقدت الشقفة بين اصابعه . ارتمى عود الوقيد ، وهو يلفـظ انفاسه ، على مقربة من محمود . تعلقت عيناه بالجمرة اللاهبة ، بشدقى المعلم تغوران وهما تمتصان فم « السبسى » . لم ينفث دخانه كما تعود محمود ان ينفث دخان دخينته ، فتح فمه فى عفوية ، ترك دخانه الحبيب يجلل الوجه المعروق ، يدخن اللحية المنفوشة . برزت اسنان نائشـة هنا وهناك ، مهترئة متآكلة مسودة . شد نفسين عميقين . دارت عيـناه فى محجريهما . نفث نفثة قوية ، طارت الجمرة اللاهبة ، وقعت على مقربة من محمود . مانزال بها بقية من « كيف » تعلقت عيناه بهـا ، تصاعدت منها رائحة ذكية داعبت انفه . امتدت اليـد المعروقة الى المخرطة مـرة اخرى ، اقوى ما تكون يدا واروع ما تكون مخرطة لتصنع التحف الفنية الرائعة من قطع خشبية تافهة .

ود محمود لو يسأل المعلم صابر . الفنان منهمك فى كتابة رائعته . تحركت قدماه ليترك الفنان فى وحدته مع الفراغ والمخرطة وقطع الفـن و « السبسى » . . .

فى ركن الحارة كان هناك :

ـ اتـريـد . . . ؟

ـ نعم . . . وساعب منها حتى يتفجر الفن من هذه الراس التى استعصت عليها الكلمات .

ومن بين اصبعى هذه ساكتب قصة نزرى بما يصنع الفنان صابر من تحف .

عرفت الغرفة الباردة دخانا اكثر قتامة . مع الليل والهدوء والبرودة والرطوبة والوخم كان محمود يسبح فى بحر الظلمات . . . لوليتا وحدها كانت تنير ممددة على الوسادة وكان السبسى يسخر من علبة الدخانين الجاهزة ، وكانت الكأس التى تتأبى على الفراغ والملء ...

ويبقى الحب . . حتى يكتب عن موضوع . .

احب شمالية رائعة ، سامقة كاشجار الشمال ، بيضاء كثلوجه ، عيناها تسبح فى بحاره . شعرها . . آه . . تجلله سفرة الشمس الواهنة فى صيف شمالية البارد . بدا يكتب عنها قصته . كانت هنا سائحة معجبة مولهة بشمس مدينته . احبته ، هامت فى عينيه وذقنه وراسه وغرفته . لوليتا تركت مكانها للحب الجديد . على سريره المتهالك كانت السويد تحنى هامتها للدفء والفحولة والربيع الحى . . .

وسارت القصة تروى الظمأ من ادب الجنس : لوليتا ، وكيف تكتب قصة ناجحة ، والشمالية التى ختمت الفصل الاول من القصة بشبقها العارى . . .

عند الشبق العارى توقف الالهام . كل امنيته تحققت ، منذ رآها ، مع الاطلال ، تتجول فى شوارع المدينة وهو يريدها لتكون لوليتاه تحنى هامة السويد للوسادة التى داعبت لوليتا احلامها . توقفت الكلمات عند شبقه . . . كان يبدو راضيا . عاش معها ، روت شبقها ، روى شبقه . فتح بوابة الادب على مصراعيه ، سيكون كاتبا ، يشار اليه فى شوارع المدينة : معشوق الشمالية الفاتنة ... !

راود الكلمات لينهى بقية القصة . استعصت . تحجر القلم بين يديه . لا الكأس ، لا السبسى ، لا الدخينة اثارت الانفعال فى اردان القلم المتحجر .

كانت شوارع المدينة التى زغرت فيها جهنم كما تزغر كل صيف مسرى اقدامه المتهالكة . يسير ثم يسير ، ولا يستريح الا على مقعد متهاو فى مقهى تشرف على « جامع الفنا » . فاجأه الصوت المتحشرج يصحبه الوجه الباسم :

ـ استضيفنا على كأس شاى ... ؟

على كأس الشاى كان حديث الثلاثة يروى ثلاث قصص انتهت جميعها بكأس شاى فى مقهى يطل على جامع الفنا . ضحك الشاب الاشقر ذو الوجه الضخم ، الذقن الثائرة ، الشعر المنفوش ، بتايا « بلودجين » وسترة ممزقة :

ـ ارضكم غير معطاء .

لم يفتح محمود فمه استغرابا ، فتح اذنيه ليسمع المزيد ، اتسعت ابتسامة الفتاة :

ـ الكيف ينبت بين الصخور . . لا يحرك حتى الصخور . . موضة قديمة . . انتم فى عصر النباتات . . حتى الحقن ولى زمانها ، ، قطرة ماء على قطعة سكر تنقلك الى عالم آخر . . .

غفر محمود فمه وعينيه واذنيه جميعا . تحدثت عضلاته ، تحركت اعصابه . تحدث الى نفسه او تحدثت اليه :

ـ فرجت . . . ابواب الالهام ستنفتح ، كاتب كبير وحق . . (ال ـ اس ـ دى) . . .

وانطلق الصوت الناعم ينتشله من احلامه وابتسامة عريضة تحلق كهالة رائقة على الوجه الضحوك :

ـ هل جربت ؟

لـم تنـتظر جوابـا :

— جرب . . جرب . . عشرون درهما تنقلك على جناحى مـلاك ، الى عالم لم تعرفه . . واضح انك تحتمل . . انت فنان ، كاتب ، الفـن فى حاجة الى . . .

لم يعد يصغى الى بقية حديثها . اخذ يفكر فى العشرين درهما . . . الكاس والسبسى والدخينة وعشرون درهما اخرى . . ومرتب المدرسة لم يتحرك . . ! سأكون كاتبا تدر قصصى على المال . .

— نعـم سأجـرب . . .

اصبح محمود صديقا للشاب ذى السراويل الممزقة والسترة المهترئة . . تمزقت سراويله . حال لون سترته . . ومايزال يتردد على المدرسة وفى طريقه الى الغرفة التى شهدت ميـلاده الجديد كان دائمـا مقهـى « جامع الفنـا »

المرآة . . السبسى . . الكاس المليئة الفارغة ، ، ال — اس — دى الاقلام المكسرة . . . ودفتر تلميذ .

استعصت الكلمات الا حينما تنطق هاتفة بشبـق السويـد . . . اختفى مفعول السبـسى والدخينـة والكاس وال — اس — دى . . . وقف محمود عاريا من كل ادواته .

هل مايزال الفن ينطلق من بين اصابع المعلم صابر ؟

كان هناك فى مثل وقفته منذ بضعة اشهر . مانزال القطع الخشبية تطاوع بنانه ، المخرطة تدور وشقفة « السبسى » تمتلىء ثم ينفت جمرتها الملتهبة ، وبقايا رائحة ذكية تعطر الحارة الصغيرة . . .

ـ المعـلم صابـر . . .

تلفت محمود . كان الصوت يصدر عن دكان صغير مقابل . العنكبوت والبرودة والوخم والفراغ . والمعلم العربى يجدل شريطا حريريا ملونـا تجاذب اطرافه عصا قوية غليظة تقتعد غلقة رحى . نظارته بين عينيه . اضاف الصوت الهادىء الناعم فى اطمئنان :

ـ . . . كيف انتهت قصتكما امس ؟

لم يكن المعلم صابر فى حاجة الى زيادة توضيح . لم يرفع راسه عن مخرطتـه . انطلق صوته المتحشرج يتابع يده القوية وهى تدير دولاب المخـرطـة :

ـ اين للحمار ان يفرق بين سكينجبير والابزار . . . ! ؟

تهته ، فى احتقار ، لم يرفع راسه وهو يضيف :

ـ اين له ان يفهم . الصنعة . . الفن . . بماله يستطيع ان يشترى ، ولكنه لا يستطيع ان يتذوق . . .

هدات المخرطة . امنك القطعة الرائعة من مخلبيها . امسك بها بين اصابعه كما لو كان شاعرا يتذوق نتاجه .

ـ المعلـم العـربـى . . .

تقابل الرجلان الفنانان بعينيهما اللامعتين . كان محمود يتـتـبع حديثهما يتردد بين جانبى الحارة ، وكأنهما يتحدثان فى مجلس خاص .

اضاف المعلم صابر وعيناه مثبتتان على القطعة الفنية تـدور بيـن اصـابعـه :

ـ . . . هذه القطعة ، كالشريط الحريرى بين يديك ، لا يستطيع اى كان ان يصنعهمـا . . .

اجاب المعلم العربى :

ـ الخشب والحرير بين يدى كل انسان ، ولكن الصنعة . . . الفن لا يستطيعه الا فنان . . .

اهتزت اطراف المعلم صابر وهو يضحك بحشرجة :

ـ كم من نجار فى المدينة ، ولا يستطيعون ان يصنعوا غير التوابيت . . . !

تهته المعلم العربى بصوته الناعم المطمئن وهو يضيف :

ـ . . . كم من مجدلى فى المدينة ولا يستطيعون ان يجدلوا غير الحبال . . .

امتدت يدا المعلم صابر فى هدوء الى غليونه . انتقدت وقيدة وهى تقترب من شقفة السبسى لتثير وجه الفنان . بدت سعادته ورضاه فى الخدود المعروقة والعينين المثقلتين . ونفث الجمرة المتقدة فى اتجاه محمود : بقية نار تحمل بقية دخان داعبت خياشيمه ، ثم لم تلبث ان خمدت . . .

الرباط عبد الكريم غلاب